الآخر في شعر حامد عبد الصمد البصري / دراسة نقدية في مستويات الاغتراب

الأستاذ المساعد معتز قصي ياسين الشاوي
مركز دراسات البصرة والخليج العربي/ العراق

تاريخ الإرسال: 2021/9/7	تاريخ النشر:ديسمبر 2021

الخلاصة

تعددت الدراسات النقدية الحديثة في دراسة ظاهرة الآخر في الأعمال الادبية، وذلك لتشعب معانيها وتنوعها وتعددها بحسب الرؤى الفكرية والثقافية والنفسية التي ينطلق منها للمؤلف، فضلا عن دورها المهم في الكشف عن المضمر والمسكوت عنه في التجربة الشعرية التي يكتنفها الكثير من الغموض والإيهام، بناء على هذا المنطلق يسعى البحث إلى الكشف عن مفهوم حضور الآخر في شعر حامد عبد الصمد البصري، من خلال الوقوف على أبرز تمظهرات الآخر وسبر أغواره في عموم تجربة الشاعر، والوقوف على أهم المستويات التي تجلى من خلالها الآخر في شعره وهي القلق والموت والمرأة والطبيعة، ومن خلال التحليل والاستنطاق لهذه الأنساق الإبداعية في شعره نستطيع القول: إنها استطاعت أن تجسّد وبوضوح ملامح الآخر ودوره في الكشف عن المضمر والكامن في كنه التجربة الشعرية للشاعر حامد عبد الصمد البصري.

الكلمات المفتاحية: الآخر؛ الأنا؛ الاغتراب؛ القلق

The Other in the Poetry of Hamid Abdul-Samad Al-Basri / A critical study in the levels of alienation

Abstract

Modern critical studies have multiplied in studying the phenomenon of the other in literary works, due to the complexity of its meanings, diversity and multiplicity according to the intellectual, cultural and psychological visions from which the author proceeds, as well as their important role in revealing the implicit and the silent in the poetic experience that is shrouded in a lot of mystery and delusion, based on this The research seeks to reveal the concept of the presence of the other in

the poetry of Hamed Abdul Samad Al-Basri, by standing on the most prominent manifestations of the other and exploring its depths in the general experience of the poet, and standing on the most important levels through which the other was manifested in his poetry, namely anxiety, death, women and nature, and through analysis And the interrogation of these creative patterns in his poetry, we can say: it was able to clearly embody the features of the other and its role in revealing the implicit and latent in the essence of the poetic experience of the poet Hamid Abdul Samad Al-Basri.
Key words: the other;ego;Alienation;worry

البحث:

المقدمة :

يُعدُّ مفهوم الآخر من المفاهيم النقدية والفنية البارزة التي احتلت مساحة واسعة من الدرس النقدي في عموم الخطاب الإنساني بشكل عام والخطاب الشعري بشكل خاص، نظرًا لما يمثله من قيمة ثابتة وسامية في تكوين الذات وتحديد ملامح هويتها الفكرية والثقافية تجاه المتغيرات السياسية والفكرية التي يشهدها العصر الحديث، ومع مرور الزمن وتطور المجتمعات بدأ مصطلح الآخر بالاتساع والشمول لمعاني متعددة وأنماط حياتية مختلفة حتى أصبح الدين والعرق واللون آخرًا، ومن هنا يسعى البحث إلى تقصي ظاهرة الآخر ورصد مديات ظهوره في الخطاب الشعري للشاعر حامد عبد الصمد، وبيان دوره في تجسيد المعاناة الشعرية وتدعيم البعد الجمالي والتأثيري فيها ، فضلاً عن تمثيله لأبعاد المحتوى الدلالي للنص.

كما يسعى البحث إلى تحليل البنية التكوينية للآخر عبر تفكيك عناصرها الرئيسة في شعر الشاعر والتي تمثلت بالقلق والموت والمرأة والطبيعة، ومن خلال التحليل والاستنطاق لهذه المستويات الإبداعية في شعره نستطيع القول: إنها استطاعت أن

تجسّد وبوضوح ملامح الآخر، ودوره في الكشف عن المضمر والكامن في كنه التجربة الشعرية للشاعر حامد عبد الصمد البصري.

مفهوم الآخر:

الآخر لغة ((آخر بالفتح أحد الشيئين وهو اسم على أفعل، والأُنثى أُخرى، إلا أن فيه معنى الصفة لأن أفعل من كذا لا يكون إلا صفة. والآخر بمعنى غير , كقولك : رجل آخر , وثوب آخر))[1] . من خلال هذا التعريف المعجمي يتبين أن الآخر هو المغاير أو الغير، أما الآخر اصطلاحا فهو لا يذهب بعيدًا عن تعريفه المعجمي للآخر، ((الآخر في أبسط صوره هو مثيل أو نقيض "الذات" أو "الأنا"))[2]، ونقيض الذات حتما هو غيره ، ويذهب بعض النقاد إلى أن الآخر ليس بالضرورة أن يكون مختلفًا أو مغايرًا بل هو جزء من الذات وشكل من كينونتها، فالآخر عنده هو((حقيقة موجودة في داخل كل منا , لا توجد ذات ساذجة , لا توجد ذات صرفة , لا توجد ذات هي حصيلة أنانيتها الخالصة , بل تتسرب في ذات كل منا ذوات أخرى , ذوات من كل لون وكل اتجاه , وقد يتعايش هذا الآخر في ذاتنا , وقد يتناص مع ذاتنا ... الآخر يملأ الوجود, وهو ماثل في البصر والبصيرة , ماثل في

[1] الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم ابن منظور الافريقي المعري، مراجعة وتدقيق الدكتور يوسف البقاعي وآخرون لسان العرب لابن منظور: مادة (آخر)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، الطبعة الأولى ,1426هـ – 2005م.

[2] د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ط3 , 2002م: 21.

السماع والاستماع , ماثل في الداخل والخارج ... ماثل في اليقظة والحلم))[1]. بهذا المعنى إن الذات لا تشترط فيها أن تكون مختلفة أو غيرية بل هي ذات متعددة، لها نظامها الخاص في الارتباط بين العالم الداخلي أو الخارجي مع الآخرين. وهناك من النقاد من ذهب إلى نقطة أعمق في تكوين الذات وتحديد هوية الآخر إذ عدّ ((وعي الذات الوجودي يتأسس تحت تحديق الآخر)) [2]. وبهذا الطرح لا يمكن العيش دون الآخر؛ فالعلاقة مع الآخر هي علاقة تلازمية حتمية وهي من ضرورات الوجود.

وتأسيسا على ما سبق فإن حضور الآخر في النص الشعري يعد ضرورة من ضرورات الذات الشعرية ومؤسسًا لها، وبالتالي فهو يجسّد الوعي الحقيقي بتمثيل أبعاد التجربة الشعرية وصياغة موضوعاتها الرئيسة، وفي ظل هذا الاندماج الموضوعي بين الآخر وما ينظمه الشاعر من أغراض وموضوعات، كان شعر الذات أو الذاتية الأبرز في حضور الآخر في شعر حامد عبد الصمد البصري، والذي ظهر عبر مستويات أربعة وهي (**القلق / الموت / المرأة / الطبيعة**):

1. القلق:

القلق ظاهرة جُبل الإنسان على مكابدتها وتحمل عنائها منذ أن أوجده الله سبحانه وتعالى على هذه الأرض، لتكون هذه المكابدة زاده في مسالك حياته الفكرية والوجدانية، والقلق هو سمة لحياة الإنسان المعاصر والعربي على وجه خاص، لما ينطوي

1 غالب حسن الشابندر، الآخر في القران، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد ،2005م:38

2دليل الناقد الادبي: 22/21.

تحته من أعباء وضغوط نفسية وخيبات نتيجة الأوضاع السياسية والاقتصادية البائسة التي يعيشها الإنسان العربي، والقلق هو الشعور بالاضطراب وانتفاء السكينة والإحساس بالضيق والحرج([1])، وقد ظل شعور القلق يلازم حياة الشعراء منذ عصور بعيدة وذلك بسبب رهافة حسّهم وحدة مزاجهم تجاه الحياة ومتغيراتها، وفي الوقت نفسه شكّل لهم دافعًا نحو الإبداع والتألق.

شكّل القلق ثيمة أساسية في الخطاب الشعري للشاعر حامد عبد الصمد، إذ جسّد من خلاله ملامح الآخر المضمر، ابتداء من تجربته الشعرية المبكرة في سبعينات القرن العشرين وحتى أحدث قصائده، وسيتلمس القارئ في تضاعيف تجاربه الشعرية عالمًا نفسيًا متميزًا له همومه الخاصة ودقائقه التي يحفل بها، عالم متجدد يبحث عن الجديد في كل شيء، عالم غذائه الانطلاق من إسار القيود التي تكبله، والرغبة العارمة في مواجهة الآخر للكشف عن أسراره وألغازه، يقول في قصيدة **ماذا أفعل**:

ماذا أفعل

لو صرت مدينة

تبحر في العمر،

بلا أشرعة

ترتاد مرافئ

[1] د .إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، عالم الكتب – بيروت – د ت – مادة قلق ١٤٩.

لم تخطر في بال سفينة...؟ ([1])

هذه القصيدة تكشف عن تكوينه النفسي الخاص والذي يحمل في داخله رؤية متغلغلة في كل شيء، رؤية قائمة على الرغبة في معرفه كل شيء وعلى القوة والتمرد على كل ما هو مألوف لنا في الطبيعة رؤية قائمة على إيمانه بتفرد نظرته وتفرد تكوينه وتميز روحه المنطلقة في كل أرجاء الكون في سمائه وأرضه واثقه من الوصول إلى عمق أعماقه..

لقد شغلت الشاعر في تجاربه مجموعة قضايا أهمها قضية وجوده وقضايا الوجود من حوله فقضية وجوده وضعها في إسار القيد والأسر، وهي محنة شخصية أحسّها محنة عامة تكبل الكون من حوله والشاعر تفرقه هذه القيود ويراها تحجب أمام نفسه من أسرار الحياة لذلك فإن أول ما يطالعنا في طبيعة النفس هو القلق المستمر عن شيء ما:

أين وجهي الصغير.. في بساتين هاربه؟

أين حبي الكبير...؟

أين طارت ..

وحطت به السنوات...؟ ([2])

[1]حامد عبد الصمد البصري، ديوان تراتيل الأيام المنسية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، عام 2000 :16.
[2]جريدة الاديب، ع152، 26 أيلول2007، ص:10

جسّد اسم الاستفهام "أين" قمة الاحساس بالقلق وألم الفراق بين الذات والآخر، فكل المقومات التي تشعره بالهوية والانتماء نراها قد تلاشت إلى المجهول، فلا طفولة ولا مكان ولاحب، وهذه المقومات الرئيسة لحياة الإنسان هي ((منبع العلاقات والهوية والانتماء، فيه تتجلى علاقة الذات الشاعرة بالآخر واشتباكها به سواء أكان بشراً أم حيواناً أم أشياء أم زمناً أم مكاناً)) ([1]) وقد كشف السياق عن قدر العلاقة بين الشاعر والآخر القلِق.

إن حياته ونفسه يتجسّد فيهما هذا القلق الذي نحسّه يلفّ القصيدة كلها، إن مبعث هذا القلق هو الإحساس المتوقد والصخب الذي يجتاح كيانه يدفعانه إلى مثل هذا الانفعال المتأجّج للانطلاق والبحث عن الجديد والمتهيب في الوقت نفسه من شبح الموت الذي تنتهي عنده آمال المرء وطموحاته ورغباته في التجدد والانطلاق يقول في قصيدة **أوراق شاعر**:

كان دوما

يحب الحياة

ويصلي

لكل الوجوه الجميلة والاغنيات

فجأة

1الدكتور وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون: 172.

خرّ

من جبل الذكريات

قبل مات ([1])

النص الشعري يجسّد حالة التوازي بين لونين من الحياة الأولى التي يعشقها الشاعر ويتماهى فيها، وهي حياة هانئة يملؤها الفرح والسعادة والحب وهو (الماضي)، أما الحياة الثانية فهو (الواقع الجديد) الذي يمثل الصدمة والانكفاء، وهي لحظة المفاجئة إنها لحظة الذكريات والحلم التي ستنتهي مع الواقع المعيش البعيد عن سر كل السعادات التي كانت تملأ حياته، وهذا ما جعل الذات الشاعر مأزومة وقلقة لا يمكن أن تنهض بنفسها إلا من خلال فعل الآخر الذي يحقق لها وجودها ويعيد التوازن إليها. وفي هذا السياق دلالة واضحة على دور الآخر في رصد حال الذات الشاعر وما يتملّكها من قلق وجودي وحيرة تبعث على الضيق والشكوى المبطنة في الألفاظ الخبيئة في المعاني، وفي هذا المعنى يقول:

دائمًا

في حيرةٍ

وإبهام

وفي رغبة قوية

وشديدة للبكاء حتى النشيج

[1] تراتيل الايام المنسية: 58/57.

وبالتمرغ بالتراب

كنت وما أزال

لاعتمادي على شرفات الروح ([1])

إن هذه الحيرة والرغبة الشديدة في البكاء حتى النشيج لا تحمل في داخلها شكًا أو رفضًا تجاه وجوده الحسي في الكون، فربما تكون ضربا من التأمل لواقع الحال الذي آل إليه الشاعر أو نشاطًا روحيًا أبعد ما يكون عن المرح والفرح، بل يخالطه خوف عميق تجاه المصير المجهول، وهذا الموقف الذي نستشعر فيه دموع الشاعر لا يخلو من مكابدة كي تتخلص النفس من الهم والتوتر والألم، وشرفات الروح هنا ليست فلسفة ينطلق منها الشاعر لتفسير الآخر الذي ستنتهي عنده حدود العقل والمعرفة، فهو ما زال في مرحلة البحث عن ذاته لم يصل بعد إلى النقطة التي تنتهي فيها آماله وتصوراته للحياة.

إن المفارقة الناتجة من صراع الواقع مع الحلم في قصائد هذا النمط هي مفارقة قاسية تستدعي كل صور الأسى والحزن والإدهاش، وهذه المفارقة الحادة لم تأتِ لإظهار التقابل والتناظر، بل لبيان ضعف الإنسان وانكساره وتصدعه أمام جبروت الزمن الذي يقوض ويفسد كل شيء، فالشاعر يعيش مع القلق والحيرة وهما يمزقان صيرورته بين ماضٍ جميل انتهى لا يستطيع العيش فيه ثانية، وبين حاضر يسوده الغربة والاغتراب وسيادة مشاعر القلق والحيرة، ومن هنا تأتي وظيفة الآخر كمعادل

[1] جريدة المنارة الثقافية، ع130، 27 -30 تشرين الثاني 23004، ص:10

موضوعي يكسر سطوة القلق، ووسيلة لتنفيث الهموم والأحزان في محاولة لدفعهما واستعادة التوازن.

2. الموت:

شكّل الموت ثيمة بارزة في الكثير من قصائد الشاعر وقيمة شعرية مهيمنة تستجلب كل معاني الفقد والإحساس الغارق بالأسى واللوعة تجاه ما يصيب الإنسان في هذه الحياة، وما يغلف هذه المعاني من صور ومواقف إنسانية تأسر القلب وتثير الوجدان بكل أبعادها وأشكالها، ويمثل هذا المستوى انعكاسًا حقيقيًا لطبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية البائسة التي عاشها أغلب العراقيين أبان الحصار الاقتصادي فترة التسعينات من القرن العشرين المنصرم ، حيث العوز والفقر والحرمان فضلاً عن الظلم والاضطهاد الذي كان يمارسه النظام السياسي آنذاك.

وتتسم تجارب الشاعر في هذا المستوى بالحزن بشكل عام والإحساس بالضياع والتلاشي نتيجة انتقال الشاعر إلى حاله أكثر حزنا وانعدام الأفق من إحداث التغيير، الحزن في قصائد هذا المستوى هو تعبير صارخ عن الآخر المتأزم خلف أسوار الكلمات وإسار القيود التي تكبل الشاعر عن نيل حريته وكرامته. إذ يحاول الشاعر بالإحساس العميق المتوهج بالرغبة في المعرفة أن يكتشف لنفسه طريقا تظهر من خلاله جملة من انفعالاته وتساؤلاته، يقول في قصيدة **الرغبة والاشياء**:

وحدي

يصطاف البرد ببلدان ضلوعي

يشربني الشك المعشوشب..

أرفع كفي

أين تنام نهاياتي ...؟

من يغمر بالفرح الطافح بيتي...؟

من يبعث ماء للأموات ...؟

تتساقط صيحاتي ([1])

يرسم لنا الشاعر صورة حسية عن الحالة النفسية المتأزمة التي يمر بها نتيجة الحرمان والشقاء، فمن خلال (الوحدة – الشك – البرد) تبرز تساؤلات الشاعر ومخاوفه عن الغيب وما يخبئه له من خريف موحش لا غناء فيه ولا فرح، ثم تكون النهاية حيث يصبح كورقة ميتة سقطت من غصن. هذا الأسى الكبير أو الاغتراب الذي يضج في عالم الشاعر ليس جديدًا أو طارئا بل هو مرافق له منذ طفولته، يقول:

طفولتي

قد بدأت

في نفق الضياع

لكن من طيبها

لم تعرف الموت

وتكره الوداع ([2])

ويقول في قصيدة **شقاء:**

[1]تراتيل الايام المنسية:67/66.

[2]حامد عبد الصمد، ديوان لا شيء سوى اللون الابيض، البصرة، العراق، مطبعة القبة الفلكية،2014 :1

ما أشقى طفلا

يقرأ اشعارا

ويحيل الكلمة أزهارا

ثم يموت

على أحداق الفجر مرارا ([1])

إن هذا الإحساس المتقد منذ الطفولة بالضياع يمتزج مع حيرة الشاعر أمام سر الموت القاهر لكل معاني الحياة وما تضج به من معاني الحركة والعنفوان، والأسى لحال الإنسان الذي يقضي حياته مؤملا نفسه بمباهج الحياة وزينتها، لا يفكر في نهايته الحزينة المغرقة بالدمع على شرفات الفجر. إن السر الذي بدأ الشاعر يبحث عنه هو سر الفناء والموت وهي نهاية طبيعية لمن لا يتأملها ولكن الشاعر المتأمل الشديد الحساسية تدفعه الرغبة في المعرفة للبحث عن هذا السر الذي ينهي كل شيء وتتفجر التجربة بالمعاناة في رغبته في بقاء كل ما حوله ربيعًا نضرًا يفوح منه العطر والألحان ويموج بالأحلام والأماني. وفي هذا المعنى يقول في قصيدة **أشكالي الأولى**:

أحيانا التف وأنا انسج حرفي

منذ اللحظات الأولى

ابحث عن صوت لا يشبه صوتي

ابحث عن أذن تسمعني

1تراتيل الايام المنسية:24

كي أوقف موتي

وأرتب تسليط الضوء

.....على نزفي ([1])

النص الشعري يجسّد حالة الاغتراب وارتفاع مستويات القلق تجاه الواقع المتأزم الذي يقوده نحو الموت، الواقع المعيش لا يمثل الشاعر ولا يعترف به منذ لحظاته الأولى، يحاول أن يجد من يسمعه ويفهمه، أو أن ينقذه من النهاية التي باتت قريبة منه. يجسّد النص أيضا حالة الصراع والقلق النفسي الحاد بسبب ما يواجهه الشاعر من العجز والحرمان، ولكن على الرغم من ذلك فهو لا يتعمق فيما وراء الظواهر كثيرا ولكنه يقدم تجربة شعرية ناضجة تدل على عمق تفكيره وإدراكه لحقائق الوجود وعلى رؤية شاملة لحقيقة الوجود الإنساني الذي يحيطه الفناء ويلوح له الموت من كل جانب وينتظره.

3. المرأة

مثلت قصائد هذا القسم حضورًا لافتًا لظاهرة الآخر في شعر حامد البصري، إذ حفل رمز المرأة بدلالات ومعاني كثيرة من أبرزها هو التوحد بين المرأة والطبيعة معتمدًا على تداخل وتشابه الأيقونات الرمزية والدلالية بينهما، واللذان يعبران بالوقت نفسه عن الآخر المضمر الكامن في تلك الرموز وما تمثله من انعكاس حقيقي لعالم الشاعر

[1]حامد عبد الصمد البصري، ديوان قريبا من ابي الخصيب، اصدارات اتحاد الادباء والكتاب في البصرة، ط1، 2017: 64/63

الشعري وما يموج به من صراعات، فالمرأة رمز الخصب والعطاء والسكن والحب وهي تتلاقى في هذا المقام مع دلالات الطبيعة، وقد حاول الشاعر أن يجسّد حالة التماثل والانسجام بينهما باعتبار أن احالتهما الدلالية واحدة، وهذا ما نجده في قصائد الشعراء الرومانسيين في سبعينات القرن العشرين المنصرم، ونظرة فاحصة لمجمل الأعمال الشعرية للشاعر حامد عبد الصمد سيتكشف للقارئ هذا التوجه التعبيري الخاص والمعبّر عن حالة التوحد بين المكان والمرأة، يقول في قصيدة **رؤيا نخلة الامس**:

آه سيدتي

شدني الأفق

- **إني أحبك خضراء ...؟**
- **أين الضلال...؟**
- **أين أمي...؟**
- **تلملم أيامها**
- **وعلى رأسها التمر بين السلال..** ([1])

المخاطب الأنثوي هنا ليس امرأة من لحم ودم، بل هي (النخلة / الأم) عبر الضمير الأنثوي لإبراز خصوصية العلاقة بين الذات الشعرية وبين الآخر الذي يتجلى في صورة المكان، وإن الثنائية المفروضة بينهما هي ثنائية مؤقتة تنتهي بانتهاء السبب وهو حصول الغربة والابتعاد عن المكان، ومن هنا انطلقت أسئلة الشاعر عن

[1]جريدة الاديب، ع152، 26 أيلول2007، ص:10

مكونات الهوية الريفية التي ينتمي إليها، كوسيلة للتواصل مع المكان الغائب ومحاكاته لتحقيق حضوره الحقيقي بكل أبعاده وأشكاله، ونلحظ هنا تأنيث النخلة يرفع من درجة الأنسنة في العلاقة بين الطرفين ويعمقها عبر تأكيد مفهوم التواصل الإنساني العاشق بين طرفي الحياة ذكورة وأنوثة.

ونجد الخطاب ذاته في قصائد أخرى حينما يتحول الآخر/ المرأة من الأنوثة إلى الذكورة عبر إيجاد حالة من التماهي بينهما في ضمير المخاطب الذكوري الذي يستبطن مشاعر المرأة في الحب والوله والعشق ليعبر عن الآخر المضمر:

أنت يا أيها الطفل

بح بالذي أنت فيه

أني أقاسمك الحب والمستحيل (1)

هكذا تصبح العلاقة بين المرأة والوطن وبين الحبيب علاقة حيرة وارتباك ذلك أن هاجس الغربة أصبح واقعا جاثما لا أمل في الخلاص منه، وهو يربك العلاقة بينهما لأن التواصل لن يتم خارج المكان الوطن وهذه الحرية قد صادرتها الغربة والابتعاد عن القرية الوطن الأُم للشاعر، وبالتالي تصبح الغربة هي الحالة الإنسانية المهيمنة، ولا عزاء للشاعر سوى الحنين والذكريات، يقول في قصيدة **شذرات**:

أيها الوجه يا خلجات الحنين

يا سنا الحب خذني (2)

1حامد عبد الصمد البصري، ديوان ما قالته النخلة للولد، المركز الثقافي لجامعة البصرة،1981: 80

2ما قالته النخلة للولد: 62

يتجلى الآخر في النص من خلال أسلوب النداء لتجسيده وتحقيق التماثل والانسجام مع كينونة الخطاب الأنثوي لرمز المرأة في النص المتجسّد في صورة النخلة، فالبيت الأول يخاطبها مباشرة دون نداء نظرا لتحقق القرب المادي والذهني لوجه المرأة، بينما يلجأ في الشطر الثاني من البيت إلى النداء وهو دليل على أنها لازالت بعيدة يود أن تتقرب إليه فتنقذه من بؤس المكان والزمان الذي حلّ فيه.

يرتبط رمز المرأة بالنخلة في الكثير من قصائد الشاعر، وهي تمثل جوهر الآخر وحقيقته التي يبحث عنها الشاعر في تجاربه الشعرية لشدة التعالق بينهما، فهما يرمزان إلى الحياة والعطاء والبقاء، ومما عزّز هذا التعالق الصوري والذهني لرمز المرأة / النخلة هو أن الشاعر نشأ وترعرع في قضاء أبي الخصيب المعروف بوفرة وكثافة نخيله، يقول في قصيدة "الجنوبية قالت":

يامن كنت نقيا

وبهيا ..

معذرة إني

بين أخاديد الذكرى ..

وينابيع اللقيا

يصرخ بي طيف الأمس

تشتبك الاحزان

لا تخمد جذوتها

وأظل أدور حزينة

يجففني في سلته البؤس

فارحم قلبي

يا حبي

لا تجعلني حطبا للنار ...! ([1])

يتشكل النص الشعري عبر الخطاب الأنثوي المباشر للشاعر في تجسيد معاني الحب والغربة والحنين إلى الذكريات، يتشاكل في صوته وإيقاعه بين الأنوثة والطبيعة المتجسّدة في هيئة النخلة وهي الآخر المقصود في هذا الخطاب، وتتجلى جمالية النص في تجسيد حالة التماثل والتماهي بين الشاعر والنخلة والمرأة عبر حوار شعري يبتدأ من خطاب النخلة للشاعر ووصفه بالنقاء والبهاء، وهي صفات النخلة والمرأة المعشوقة نفسها، ثم تتشكل الصورة الشعرية في وصف مشاعر الحب والذكرى بين النخلة والشاعر وترجوه وتسترحمه أن لا يتركها للبؤس والعذاب، وهنا تتضح الرؤية الفارقة التي يتعامل بها الشاعر مع النخلة الآخر بوصفها أنثى، ذلك أن لغة الشخص بالمفهوم الكلي هي الشخص نفسه، وحين تكون اللغة أنثى فإن هذا يحتمل العديد من الدلالات مثل : المحبة والرقة والعطاء والخصب إلى غير ذلك من المعاني الجميلة للنخلة تحققها اللغة الشعرية حين تتأنسن الطبيعة وتصبح كيانًا حيًا.

1قريبا من ابي الخصيب:70/69

إن مع اختلاف طبيعة تجارب الشاعر مع المرأة إلا أنها جميعا تكشف لنا عن حاجة نفسية مرتبطة بعوامل تكوين شخصيته، وأقصد هنا رغبته النفسية في الانطلاق والتسامي وإحساسه المتوحد في النزوع إلى التعامل مع عوالم شعرية تفوق الواقع المثقل بالهموم والشقاء وترتبط بالوقت نفسه بالمكان المثالي المنشود، وهي صفة جوهرية فيه نجدها تتمثل في معظم تجاربه، وتتضح صورتها جلية في دواوينه الأخيرة. إنه يحب التعامل مع المستحيل وهي بذرة نجدها قد ترعرعت مع مرور الزمن لنجد ثمرتها " هذه الدواوين الأخيرة " والتي يتعامل فيها الشاعر مع عالم من الرؤى الداخلية والعوالم الخفية ويشدّه إليها الأسرار والغموض والسحر يحاول الولوج إليها وفك ألغازها.

4. الطبيعة:

لقد كان لشعر الطبيعة حضوره الطاغي في عموم التجربة الشعرية للشاعر، ودوره الفاعل في إنتاج الآخر وتمثيله للمستويات المضمرة من لواعج النفس ومعاناتها تجاه الحياة؛ ويرجع ذلك إلى تأثره الكبير بالبيئة الريفية التي نشأ فيها وترعرع بين أحضانها وأفيائها، وقد شكّل هذا الموضوع هاجسًا نفسيًا عظيمًا يملأ كيانه ويمنحه الرضا والهدوء والسكينة تجاه ضغوط الواقع المعيش.

ويأتي توجه الشاعر في وصف الطبيعة منساقًا مع تيار الشعراء الرومانسيين في العصر الحديث الذين نظروا إلى الطبيعة نظرة مثالية ويعدونها المنقذ الوحيد من القلق والضيق والتوتر الذي يعانونه من المدينة وضجتها وتعقيداتها فيفرون إلى الطبيعة وبالأخص الريف الهادئ، وهو بالمقابل للمدينة الصاخبة فهم ((يناجونها كما يناجون معشوقاتهم ويبثونها آمالهم وآلامهم وخلجات نفوسهم كما لو كانت كائنا يحس ويعقل

و يرتمون في احضانها كما يرتمي الطفل في حضن أمه و يعانقونها كما يعانق المحب ويحسون نحوها بهيام روحي غريب...)) ([1]).

ويرجع أحد الباحثين([2]) ارتماء الشعراء في أحضان الريف إلى الغربة الروحية التي تصدر عن عدم القدرة على مواجهه الواقع التكيف الاجتماعي والنفسي والاشمئزاز من تعقد الحياة والمجتمع لذلك لجأ الشعراء إلى الريف مصدر الراحة والطمأنينة والسكون، ولما كان الشاعر أبن بيئته تؤثر فيه ويتأثر بها، فإن الريف بيئة الشاعر حامد عبد الصمد و مسقط رأسه و ملعب طفولته ومطلع شبابه ومكان ذكرياته، وقد ظهر أثر ذلك جليًا في رسم صوره النابعة من حياته المرهفة منذ طفولته اللاهية في أحضان الريف المكتنز بالجمال والسحر، ونظرا لانتقال الشاعر إلى المدينة حيث الصخب والمصانع والمساحات السكنية الكثيفة، بدأ شعور الغربة يتسلل إلى عالم الشاعر وبدأ يشعر بالضيق والقلق والاحساس بالضياع، لذا أصبحت الطبيعة بكل تجلياتها ذاتًا أخرى للشاعر يرتمي في أحضانها ويتلذذ بلحظاتها، ويندمج في كيانها حتى تؤول هي الشاعر نفسه، يقول في قصيدة ما قالته النخلة للولد:

ارتديني

اجيء إليكَ

1 د. ماهر حسن فهمي، القاهرة، تطور الشعر العربي الحديث في مصر،1900-1950، مكتبة النهضة، 193: 1958

2ينظر: د. ماهر حسن فهمي، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، 110: 1970

محملة بالطعام الهوى..

****

ارتديني

قميصا

لا سكن فيه

وتستل روحي إليكَ ([1])

النص هنا يعبر عن قوة المزج بين الواقع والخيال بين الذات والطبيعة في مشهد يتوحّد فيها الذات مع الآخر، ولعل مبعث هذا الاندماج هو الإحساس بالرفض والاغتراب للواقع المعيش حيث القلق النفسي والاضطراب، مما يدفعه الهرب نحو الطبيعة والتماهي معها ومحاورتها كما يحاور الإنسان حبيبته، إذ تمنحه شعورًا بالقرب والحلول في المكان المنشود، كما إن للغة الشعرية دور في توظيف أسلوب الأمر في الفعل **ارتديني** لتجسيد هذه الرغبة الملحة في تطويع الخيال نحو الواقع وجعله راهنًا حيًا يفيض بمشاعر الحب والهيام. ويتجدد هذا المعنى في قصيدة **رجاء**:

لا ترحل..

كي لا يورث في قلبي الشيخوخة

كي لا يحملني الاعصار

ويدق زجاجة رأسي الصخر

1لا شيء سوى اللون الابيض 31/30

كي لا يلهب جبهتي البعد المر...! ([1])

الآخر هنا قد توحّد مع قلقه واكتئابه فلم يعد ثمة فاصلة بين الشاعر وبين الطبيعة، فالغربة شديدة الوطأة ليس على الشاعر فحسب وإنما على الشجرة أيضاً وهو ما قصده الشاعر من خلال تجسيد الصور بصفات محسوسة (الرحيل، **شيخوخة القلب، الاعصار، يلهب جبهتي)** إلى جانب الصور المدركة (**يدق راسها بالصخر، البعد المر)**. وفي مشهد آخر تخاطب الريح الشاعر بالوقوف على الذكريات الجميلة التي كانت تحيا بينهما، يقول في قصيدة فجأة:

عندما مرّ يوما على بابها

قالت الريح:

قف

إن عطر الخطى يستفيق

على شاشة الذكريات بكاء...! ([2])

يلجأ الشاعر إلى توظيف الذكريات كبنية تستدعي المشاهد واللحظات الماضية، نظرًا لما لها من رونق خاص يبعث بالنفس شوقاً للماضي الذي مازال ينبض بالكثير من الحياة، وتحيي فيه مشاعر كادت أن تنسى. وفي الوقت نفسه وسيلة نفسية ملحة

1قريبا من ابي الخصيب 68

2ديوان تأملات على أجنحة الصمت، حامد عبد الصمد البصري، شركة الغدير للطباعة والنشر، العراق، البصرة، 2013: 35

ومعادل موضوعي يلجأ إليه الشاعر كلما يشعر بالحنين والاشتياق للمكان والبيئة التي نشأ فيها والتي لا سبيل للوصول إليها بسبب الهجرة منها والتغرب في أمكنة أخرى، لذا القارئ لشعر حامد عبد الصمد سيجد حضور لفظة الذكريات أو ما يشاكلها من المعاني يتكرر كثيرًا، يقول الشاعر في قصيدة **آثار**:

على جذع نخلة

رأيت خطوطا ..

متعرجة ..

ومنحنية..

سحبتني

إلى ..ا

لـ..و

ر...ا...ء

قليلا ...قليلا

حتى همست في أذني :-

لا تستغرب لو طوقتك ،

إني أنا الذكريات.....! ([1])

1تأملات على أجنحة الصمت95/94

النص الشعري هنا عبارة عن لوحة فنية فذّة يلعب فيها التصوير والاستعارة دورًا مهمًا في تشكيل الدلالة من خلال جذب الملتقي بصريًا نحو تفاصيل المشهد (**جذع نخلة / خطوط متعرجة / منحنية**) ثم ينتقل من الصورة البصرية إلى الصورة الحركية من خلال سحب الشاعر إلى الوراء بطريقة دراماتيكية ولقاءه بالذكريات، كل هذه التفاصيل داخل النص تأتي كمعادل موضوعي لتمثيل الآخر المغترب، لقد جسّدت الصورة الشعرية في النص صراع الغربة/ الحنين بطريقة جمالية معبرة بيّن من خلالها الشاعر حالة الحركة والسكون واضطراب الموقف بينهما، وتجسيدهما لأبعاد المحتوى الدلالي للنص.

القارئ لقصائد هذا النمط سيجد أنها ترتكز على قضية محورية واحدة الا وهي أثر الزمن في حياة الإنسان المقهور ودوره في إطالة أمد المعاناة والعذابات التي يعايشها في كنفه، وسيبقى يدور الشاعر في دوامة العزلة والجفاء يبحث عن الأمل المفقود، يقول الشاعر في قصيدة **جنان**:

في النهار المبكر،

ابحث

عن زهرة

من حنان

ليكون فؤادي جداول عافية

في صخور الزمان...! ([1])

لازالت صورة الريف في براءته وطهره عالقة في مخيلة الشاعر فهو يجود سخاءً وحبًا ونقاءً، في الوقت الذي كان يبحث عمن يداوي جراحه ويحنو عليه من وطأة الزمن الجاثم على صدره كالصخرة، وهذه الصورة هي تجسيد حقيقي لحالة الضياع الذي يعيشه الشاعر وهي صورة تولدت أساسًا مع ابتعاده المتزايد زمنًا ومكانًا عن مصدر راحته وسعادته ، وهذا الشعور الذي نشأ معه وسرى في دمه حتى وهو في أعمق لحظات التمتع بالجمال ، إنه الشعور الواعي بالآخر وهو دليل رغبته وتشوقه إلى معانقه الحياة والتمتع بها على الرغم ما تثيره في نفسه من قلق. يقول في قصيدة **خطوات:**

خطوة

في القرى النائيات

تأخذ الطير

في سنوات طفولته

يشبث في بعضه ،

يترشف بوح الغصون الندية ،

يسمو بأوجاعه

يتجدد فيه الطموح ، المياه ...!

1قريبا من أبي الخصيب:38

يتعلم شيئا فشيئا خيوط الهوى، والحياة

خطوة

كالحدائق، في أول الصبح زاهية

بين انفاسها راحة.. للذي أثقلته السنون

بالهوى ...والجنون.. ([1])

على الرغم من هذا التداخل المحسوس في كل تجاربه فقد وجدنا أن الطبيعة المحسوسة قد تأرجحت التجارب فيها بين التصوير الدقيق لمشاهدها لإبراز جمالها والتمتع بها وبين الرؤية المتغلغلة فيها بحيث تصبح المرآة التي تنعكس عليها الأحلام والآمال... أي هي الآخر المثالي البديل عن العالم الواقع ... إن تمثيل الآخر عند الشاعر يتجسّد في نوع الطبيعة التي فجرتها قصائده ، وفي نزعة المواجهة التي انبثقت منها ، وما نريد أن نؤكده في هذا الصدد أن كل الانفعالات المصاحبة لمعايشة الواقع والتي يحاول الرومانتيكيون الهروب منها والتنفيث عنها في فرارهم إلى الطبيعة نجدها عند الشاعر تنبعث من التحامه وامتزاجه بهذه الطبيعة فكما ذكرنا آنفا الطبيعة هي الواقع وهي الحياة التي لا يهرب إليها أو منها ولكنه يلتحم بها أكثر وهو لا يبحث لها عن العزاء والسلوى.

1قريبا من ابي الخصيب 56/55

الاستنتاجات

1. جسّد الآخر عبر بوابة القلق حالة الحيرة والضياع التي يشعر بها الشاعر تجاه المجهول الذي مزّق صيرورته وكيانه، بين ماضٍ جميل انتهى لا يستطيع العيش فيه ثانية، وبين مستقبل تسوده الغربة والاغتراب وسيادة مشاعر القلق والحيرة، ومن هنا تأتي وظيفة الآخر كمعادل موضوعي يكسر سطوة القلق، ووسيلة لتنفيث الهموم والأحزان في محاولة لدفعهما واستعادة التوازن.
2. جسّد الآخر عبر الموت حالة الصراع والقلق النفسي الحاد بسبب ما يواجهه الشاعر من العجز والحرمان بسبب الظروف الاقتصادية القاهرة، وقصائد هذا المستوى هو تعبير صارخ عن الآخر المتأزم الذي يبحث عن الخلاص والتحرر. ولكن على الرغم من ذلك قدّم تجربة شعرية ناضجة دلّت على عمق تفكيره وإدراكه لحقائق الوجود وعلى رؤية شاملة لحقيقة الوجود الإنساني الذي يحيطه الفناء ويلوح له الموت من كل جانب.
3. أمّا علاقة بالآخر/ المرأة فكانت غير واضحة الملامح، فقد ارتبط مفهوم الأنوثة بدلالات متعددة كالطبيعة والنخلة والمكان والهوية، وقد عبرت هذه الدلالات عن حاجة نفسية مرتبطة بعوامل تكوين شخصيته، ورغبته النفسية في الانطلاق والتسامي وإحساسه المتوحد في النزوع إلى التعامل مع عوالم شعرية تفوق الواقع المثقل بالهموم والشقاء وترتبط بالوقت نفسه بالمرأة.
4. أمّا علاقته بالآخر/ الطبيعة فقد أصبحت الطبيعة بكل تجلياتها هي الآخر المنشود للشاعر يرتمي في أحضانها ويتلذذ بلحظاتها، ويندمج في كيانها حتى تؤول هي

الشاعر نفسه، ولعل مبعث هذا الاندماج هو الإحساس بالرفض والاغتراب للواقع المعيش حيث القلق النفسي والاضطراب، مما يدفعه نحو الهرب إلى الطبيعة والتماهي فيها.